

مستقبل العمل الآثاري في السودان

كلية الإمام الهادي - أم درمان

د. يوسف حسن

مستخلص:

موضوع الورقة مستقبل العمل الآثاري في السوداني و لكن الورقة تبدأ بوقفة عند واقع الآثار و تشير إلى أهميتها و فوائدها المعنوية و المادية للبلد و أهلها و في ذلك تشير إلى دور الآثار في تقوية الثقة بما قد تثبته الآثار من مساهمة معتبرة للبلد في التأريخ والحضارة الإنسانية كما أن الآثار يمكن أن تكون مصدر دخل لبعض المواطنين و مورداً معتبراً في ميزانية الدولة . تتحدث الورقة عن مهددات الآثار و تورد لذلك بعض الحالات و من ثم تتحدث عن المطلوب عمله في مستقبل العمل الآثاري من أجل أن تؤدي الآثار دورها بل أدوارها في خدمة الشعب و الدولة بأجمعها ، ثم تخلص الورقة إلى توصيات يرى الكاتب أن الأخذ بها يساعد في تحقيق المطلوب و الطموح .

The future of archaeological work in Sudan

Dr. Youssef Hassan

Abstract:

The subject of the paper is the future of archaeological work in Sudan, but the paper begins with a pause at the reality of antiquities and indicates their importance; moral and material benefits for the country and its people, and in that it refers to role of antiquities in strengthening confidence in the significant contribution that antiquities may prove to the country in history and human civilization as well. Antiquities (archaeology) can be a source of income for some citizens and a significant source in the state budget. The paper talks about the threats to research antiquities and cites some cases for that , and then talks about what is required to be done in the future of archaeological work in order for the antiquities to play their role in serving the people and the state as whole Desirable and ambitious.

مقدمة :

الآثار جمع أثر والمعنى المباشر وللدلالة اللغوية يشمل كل ما يخلفه فعل أو قول ومن ذلك آثار أقدام المتحركين ومنها حادث حرفة قص الأثر وذلك كما تشمل الأثر المعنوي أو النفس المترتب عي وقوع الحدث أو سماع القول سواء كان ذلك حساً مقرض ومفيدة أو سيئاً ضارة ولكن المقصود اصطلاحاً عند أهل الاختصاص هو ما خلقة إنسان العصور السابقة ويأتي الإهتمام به لأسباب وفوائد أذكرها في موضعها من الورقة .
عند الحديث عن الآثار أو زيارتها فالمقصود من ذلك هو معرفة الخلف لماضي السلف للاستفادة منه في حاضره ومستقبله ويشمل ذلك حسب دراسة صلاح عمر الصادق ما يلي :-

1. الآداب والفنون ولاشك عندي أنه قصد بالفنون الصور والرسوم والمنحوتات والمجسمات .
2. المجال الإقتصادي .
3. مجال هندسة البيئة والمعمار .

وجود الآثار التي تدل علي سبق عقاري معماري أو اقتصادي أو إجتماعي أو سياسي ينعكس علي البلد وأهله بتصنيف إيجابي يرفع المعنويات ويشحذ الهمم أو هكذا ينبغي أن يحدث ولكن قد يترتب عليه غرور واستعلاء وبعبكس ذلك قد تدل الآثار علي ماضي سالب فيكون أثرها علي أهل البلد سالباً.
هذا بينما يختلف موقف الأجنبي الي درجة الحسد والعين وربما العمل على الإضرار بالآثار أو سرقة بعضها خاصة إذا استحضّر حالة التنافس الحضاري وما يعينه السبق والإبداع والتفوق وما يترتب عليه من تصنيف إيجابي للبلد وأهله .

فوائد الآثار :

حتى لا يعتبر البعض الاهتمام بالآثار ترفاً ذهنياً أو تعظيماً لأوثان أورد فيما يلي الفوائد المرجوة من وراء الاهتمام بالآثار :

1. التعريف بالحضارات التي سادت .
2. العظة والاعتبار كنتيجة لرؤية ما حصل لمن استكبر كفرعون او اغتر كقارون وقوم صالح الذين جابوا الصخر بالواد ونحتوا من الجبال بيوتاً ما تزال باقية شاهدة علي الإعجاز القرآني بالتعبير عنها بعبارة (فتلك بيوتهم) في قوله تعالى : « فتلك بيوتهم خاوية بما ظلموا إن في ذلك لآية لقوم يعلمون » ، و بعبارة (تلك مساكنهم) في الآية « و كم أهلكنا من قرية بطرت معيشتها فتلك مساكنهم لم تسكن من بعدهم إلا قليلاً و كنا نحن الوارثين » (58) سورة القصص ، أيضاً في قوله تعالى : « ألم تر كيف فعل ربك بعاد (5) إرم ذات العماد (7) التي لم يخلق مثلها في البلاد (8) و ثمود الذين جابوا الصخر بالواد (9) و فرعون ذي الأوتاد (10) الذين طغوا في البلاد (11) فأكثروا فيها الفساد (12) فصب عليهم ربك سوط عذاب (13) إن ربك لبالمرصاد (14) » من سورة الفجر .

3. الإنتباه الي أنّ ما يحققه بعض البشر الحاضرين من إبداع وتفوق مادي لا ينبغي أن يكون سبباً للغرور و الإستبداد .
4. غرس الثقة في المنهزمين نفسياً امام منافسيهم المتفوقين عليهم في هذا العصر .
5. العائد المادي باعتبار الآثار تجذب للبلد مورداً اقتصادياً معتبراً ، يفيد خزينة البلد ويوفر مصدر دخل لبعض المواطنين ، نظير ما يمكن أن يقدموه من خدمة للسوّاح.
6. قد يفيد وجود أثر متفق على نسبته لعصر من عصور بلد معين في حسم النزاعات الحدودية كما حدث في النزاع بين مصر واسرائيل حول مدينة طابا حيث احتج المصريون بوثائق اثريه عليها نقوش وكتابات ترجع الى العصر الفرعوني والعصور التي تليه .

مهددات الآثار :

صينية البوابة :

رجع إلى ذات يوم أحد الباحثين المصريين و هو منزعج قائلاً « هو إيه ده بتعملوا فيه ده ؟ ! » و كان السبب أنه وجد بوابة عبد القيوم - الأثر التاريخي المهم - مستخدماً دواراً للسيارات ، وسبب انزعاجه أنّ تكرار الاهتزاز قد يعرض البوابة للإنهيار وفعلاً بعد حوالي الشهرين من كلامه هذا ظهر تصدع في قوس البوابة من أسفل فأضطرت جهة الصيانة لاستخدام الأسمنت الأمر الذي يخرج الأثر عن أثريته ويضلل السائح الزائر إذا اعتبر أنّ ما يراه بعد الصيانة هو أصل الأثر وسيكذب إذا روى ذلك لغيره و لا بد لراء أنّ يروى و من أمثلة ذلك أيضاً الجسم المخروطي الأسمنتي الذي يجده زائر آثار البجراوية .

من وسائل ضياع الآثار :

عندما نظم قسم السياحة و الفندقية رحلة علمية لطلبته لآثار نهر النيل توقفنا في شندي حيث التقينا ببعض أساتذة جامعة شندي و عندما عرفوا وجهتنا حكى لنا أحدهم أنّ أحد الأجانب جاء إلى شندي و سأل عن منطقة البجراوية ثم استأجر سيارة و كلّف أحد السودانين بأن يذهب إلى منطقة آثار البجراوية و يأتيه بحجر منها . و فعلاً تم الأمر بسرعة فعاد إليه بالحجر واستوثق ببعض الأسئلة أنه فعلاً من داخل منطقة الآثار فاستنتج من ذلك أنّه يمكنه الدخول و أخذ ما يريد و الخروج دون أن يعترضه أحد.

عندما وصلنا إلى منطقة آثار البجراوية توجهنا إلى مكتب الإدارة فوجدنا موظفة واحدة و أفادت بأن معها آخر غائب و مبالغه أن نروي أنها قالت إنه لا يحضر في مثل هذه الأيام و سألناها عن مطّبق تعريفنا فأشارت إلى لوحة إعلانات و قالت إن هذا كل الذي لديهم و سألناها عن دليل سياحي ليرافقنا ليجيب عن أسئلتنا عن الآثار فنادت العم مصطفى و قد قام مشكوراً بالدور بقدر ما تجمّع لديه من معلومات و عند مرورنا على ذلك شكل مخروط أسمنتي قال أنّه من عمل شركة أجنبية وعن ما عمله الأجانب قال : إن أحد الخبراء حملّ جملاً ببعض محتويات الآثار - لا أدري أمن داخلها أم من خارجها - دون أن يخضع ما يحمله إلى عملية تفتيش و لا علم للعم مصطفى بما حدث بعد ذلك .

تري ماذا نسمى هذا و ما معنى أن يقرر ذلك الخبير ما يأخذ و يختار لأخذه الليل؟! أرجو ألا يكون ذلك هو واقع الآثار حتى الآن ، لأنه مؤسف ومحزن بل إنه كارثي بسبب ما هو واقع من مهددات و أضرار يمكن تلحق بها خاصة جراء التعدين الذي صار يمارسه كل من يستطيع إليه سبيلاً ، دون قيد أو شرط أو مراقبة خاصة مع احتمال أن يكون من بين المعدنين من لا يعرف قيمتها أو من لا يهتم ما يلحق بها من ضرر كالمعدنين الأجانب ، هذا مع احتمال مع احتمال أن يكون الإضرار بها من مهامه الأمر الذي ستكون نتيجته، إذا استمر الحال على ما هو عليه ، ضياع الكثير من الآثار أو تشويهها و ربما تدميرها أو سرقتها و تهريبها و بالتالي تخسر البلد و يخسر أهلها ما كان يمكن أن يكسبه منها معنوياً و مادياً.

هناك عدة مهددات قد تلحق بالآثار ضرراً جزيئاً أو كلياً ، مؤقتاً أو دائماً مثل ما يلي :

- 1- التوسع السكاني أو التعدين العشوائي ومنه التصرف الفردي من شخص أو جماعة بالاعتداء علي الأثر طمعاً في مكانه لأي غرض أو منفعة قد يقدر المتصرف أنها أهم من وجود الأثر وقد يحدث ذلك من جاهل بقيمة وجود الأثر وفوائده كما قد يحدث بسبب فهم يربطه بالدين كأن يعتبره وثناً فيخشى من أثره علي عقيدة بعض الناس والمتعدي هنا لا ينتبه أو لا يأبه بما يترتب علي اعتدائه على الأثر من ضرر يعم البلد بخسارة الفوائد المعنوية والمادية الأمر الذي يصنف المعتدي في صنف عدو نفسه لأن الضرر يشملته أيضاً.
- ومن أمثلة المواقع الأثرية التي حدث ضرر جزئي أو كلي نتيجة التصرف العشوائي وربما المتعمد ما حصل لبوابات أم درمان وما قد يكون حصل للآثار في أماكن التعدين والبحث عن الذهب ، خاصة في السنوات من بداية الألفية الثانية فلا خلاف حول وجود آثار في المنطقة التي غمرتها البحيرة التي أحدثها بناء السد العالي فرغم أن بعض الآثار أنقذت إلا أن احتمال فقد وضياع بعضها وارد .
- 2.العوامل الطبيعية:-التعرية والسيول وربما كان من أمثلة ذلك ما حدث لطابية القماير.
- 3.التشويه المقصود وهو ما قد يحدث من منافس حضاري و قد يحدث ذلك باسم الصيانة كما حدث مثلاً في بعض آثار البجراوية حيث يظهر مبنى مخروطي أسمنتى لا علاقة لمظهره بالآثار ومظهرها المعروف .
- 4.التدمير الذي يحدثه تصرف جاهل بأهمية الأثر وما يحدثه تصرفه من ضرر.

مجالات ومطلوبات العمل الآثاري :

لتفادي المهددات ولتحقيق الفوائد المذكورة هناك مطلوبات من المهم أن تكون محمل نظر و اهتمام وعمل المعنيين بالآثار الرسميين منهم وغير الرسميين . و لا بد هنا من الإشارة المجهود الذي بذل أخيراً لتحسين وضع متحف الخليفة يرجى أن يكون ذلك بداية لعمل يتواصل ليشمل كل المتاحف القائمة بل و ينشئ غيرها حيثما كان ذلك ضرورياً ، إنه عمل يستحق الإشادة و يبشر بمستقبل طيب للعمل الآثاري . لا غرابة في أن يبدأ الاهتمام بمتحف الخليفة و حسن أن يكون ذلك برعاية وزير الثقافة و الإعلام الذي أعلن ما يمكن تسميته خطة العمل المستقبلية حين أشار إلى متاحف الأقاليم ما يطمئن من يهتمهم الأمر و يخدم الوحدة الوطنية التي يضعها انحصار الخدمات في المركز _ ولاية الخرطوم _ غير أني أرى من

الضرورة المحافظة على خصائص كل أثر بما في ذلك لونه ، أي أني أتحفّظ على استخدام طلاء جديد كالجير الأبيض أو غيره . كما أن الكاتب يرى أنّ الأفضل أن يكون المتحف مخصصاً لمناسبة أو حقبة أو منطقة أو شخصية ، لأنّ التخصص يركز الاهتمام و يعمق المعلومة بينما الجمع بين المتباينات عسراً أو موضوعاً يشتت تركيز المشاهد و يجعله مجرد متفرّج بينما المطلوب أن يخرج بمعلومات تضيف إلى ما عنده وتؤثّر في موقفه من الأثر ، تدعمه أو تصحّحه و لذلك لابد من اشتراك الجميع خاصة المؤسسات العلمية في وضع خطة مدروسة . وحتى لا يكون الحديث فقط ووقوف على الأطلال على طريقة (قفا نبكي) فإنني أورد فيما يلي بعض الخطوات العملية التي أرى أنه لو تم القيام بها يمكن أن نكون قريبين من الفوائد المذكورة و هي :

1. نشر ثقافة أهمية الآثار
2. تصحيح المفاهيم الخاطئة عنها
3. تدريب مزيد من المتخصصين في مجالات العمل الأثاري .
4. تدريب الأدلاء وتزويدهم بمزيد من اللغات لاسيما اللغات التي يتحدثها عدد كبير من السياح .
5. التأكد من وعي وإخلاص كل من له علاقه بحماية الآثار خاصة الحرس والخضراء ومنسوبي الجهات الأمنية المعنين بحراسة الآثار والعاملين في مناطقها .
6. العمل علي اكتشاف مزيد من الآثار بالبحث في مظان وجودها بافتراض أن كل عصر تاريخي ؛ سلطنة أو مملكة أو مشيخة أو شخصية مشهورة كرجال الدين الحكماء وغيرهم وذلك بالتنقيب وإجراء الحفريات اللازمة والتبليغ عن المكتشف واشهاره.
7. بذل جهد لدراسة الرموز و الصور المنقوشة على جدران المباني الأثرية و مواصلة محاولات فك رموز اللغات القديمة كاللغة المروية وغيرها .
8. حماية الموجود و ما سيكتشف من عوامل التعرية و من التصرف العشوائي و التدمير المتعمد و من السرقة بل حتى من التشويه الذي يتم باسم الصيانة خاصة عندما يسند امر الصيانة لأجنبي بحجة التخصص او الامكانات .
9. التعريف بالآثار عبر الوسائط المختلفة .
10. إدخال مادة الآثار في المناهج الدراسية بطريقة متخصصة و متوسطة
11. إجراء الدراسات اللازمة .
12. الانتباه إلى احتمال عدم صحة وجود الأثر أو عدم صحة نسبته واحتمال أن يكون إشهارة لهدف خفي كغزو بحجة أن وجوده يعني أن من ينتسب إليهم كانوا من سكان تلك المنطقة و احتمال أن يكون الأثر نتج عن نزوح او هجرة و إقامه مؤقتة كمقابر اليهود بالخرطوم و ما يقال عن سواكن و منطقة أم روابة⁽¹⁾

الخاتمة

لعل الكاتب من خلال ما أورده عن أهمية الآثار و فوائدها و ما أشار إليه من مهددات و ما ذكره من وسائل و مطلوبات لحماية الآثار بل حماية تاريخ البلد و مواردها من الأضرار التي قد تلحق بآثارها من التشويه أو النهب و السرقة و ربما التدمير بأفعال و إجراءات ممكنة انتهاءً بتوصيات محددة لعلها تكون مفيدة في الانطلاقة المرجوة في مستقبل العمل الآثاري عامةً و في السودان خاصةً .

التوصيات :

كنتيجة لما اطلع عليه الكاتب وما رآه بعيني رأسه وقف عليه ميدانياً و ما سمعه بأذنيه من بعض العاملين و المهتمين و الحاديين على مصلحة البلاد و استفادةً مما قرأه من دراسات و بحوث و كنتيجة لما أورده في الورقة ومساهمة في تحقيق المطلوب و قفزاً إلى الأمام من منطقة الأحلام و الأمانى لتصير واقعاً و ثماراً يجنيها من يحضرها من أهل البلاد و وفاءً للماضين وصونا لتقدير اتراثهم ولأجل أن يستمر سنداً وثروة دائمة للأجل معنوياً ومادياً اوصى بما يلي :

- دراسة الآثار دراسة علمية تحصرها وتوثق لها وتصفها .
- تفريغ من يتخصص في متكننا غامضها وكشف خفيها بدءاً باللغات ومعاني ودلالات الرسومات والاشكال .
- جمع ما تفرق عنها في كتابات الرحالة والسواح والباحثين المخطوط منها والمطبوع .
- بذل الوسع المحلي واستنفار الإمكانيات العالمية لدي المنظمات المختصة للإسراع بصيانتها لنعيدها إلى ما كانت عليه .
- إعداد وطباعة الكتب والدعايات والمطبقات التعريفية بأقصى جودة ممكنه وأكبر عدد وجعلها متاحه وبأسعار معقولة .
- تأهيل وتدريب العاملين في مواقع الآثار وزيادة عددهم وتنظيم ورديات عملهم ومنحهم المرتبات والمخصصات التي تشعرهم بأهمية مهامهم و وظائفهم وتلبى حاجتهم حتى يتفرغوا لها ويقبلوا عليها بالإهتمام اللائق بها و أن يكون لهم زياً مميزاً ويزودوا ببعض اللغات الأجنبية لتمكينهم من التخاطب مع الزوار الأجانب .
- تنفيذ فكرة المناطق المحمية وإثراءها بما يزيد من جاذبيتها كأن تستجلب لها وتربى فيها الحيوانات والنباتات النادرة .
- التنقيب الآثاري في مظان وجود الآثار.
- بذل جهد لرئاسة الرموز والصور المنقوشة علي جدران علي المباني الاثرية ومواصلة محاولات فك رموز اللغات القديمة كاللغة المروية وغيرها .
- مواصلة تغذية المتاحف بالمكتشفات الأثرية الجديدة .
- - تقصير الظل الاداري وتقريب المسافة من خدمة الآثار بيان أنها ليست مسؤولية

الدولة أو وزارة السياحة أو مصلحة الآثار على المستوى الاتحادي أو الولائي فحسب ، بل كل مسئول عما في نطاق وجوده من المحلية والوحدة الإدارية إلى القرية إلى الفرد الواعي ليعمل الجميع كل من جهته وحسب طاقته وإمكانياته علي المساهمة في العمل الآثار سواء اكتشاف المجهول والتبليغ عنه لدى أقرب مسئول وحبذا لمصلحة الآثار ثم بالمساهمة في حمايته من أي عمل ضار أو عشوائي أو مقصود .

- السعي لإسترداد القطع الأثرية المهربة أو المغربة في الخارج .
- تكامل الجهود بين الدولة والمؤسسات المختصة .
- توزيع البلاد بين الجهات المختصة زمانياً حسب العصور التاريخية أو جغرافياً بالمناطق و المدن .

المصادر والمراجع:

- (1) القرآن .
- (2) فيصل محمد موسى (أ.د.) ، دراسة .
- (3) زيارة المركز للبجراوية .
- (4) توثيق المركز لشارع أبو روف .
- (5) توثيق لزيارتي لمنطقة نهر عطبرة .
- (6) مركز الامام عبد الرحمن ، سياحة في عمق السودان الحضاري .
- (7) أحمد ابراهيم أبو شوك ، السودان السلطة و التراث ، مركز عبدالكريم ميرغني ط 1 ص 2015 .
- (8) تسنيم حمد الملك ، التوثيق للمباني القديمة في امدرمان .
- (9) جريد النجباء .
- (10) صلاح عمر الصادق , دراسات سودانية في الآثار و الفلكلور والتاريخ